

مطلقاً أن تكون حياتهما الزوجية سعيدة هنيئة كما نفهمه ونحسه
حين نتصور ونذكر السعادة والهناء !



آمال ورغبات

الفصل الخامس

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمال ورغبات شاب من أبناء
الريف شهد بهينيه هذه الحياة الشقية البالغة أقصى مراتب الشقاوة
التي يعيشها الفلاح المصري ويحياها هذا المسكين الطيب ، فلم يشأ
أن يكتنم آلامه ويسكت أنينه بل رأى انه من الواجب ومن الوفاء
للوطن وللقرية ومن الاحترام لنفسه وضميره أن يجأر بالثورة على
هذه الحياة التي تتنافى وكل مظهر من مظاهر الانسانية أو الرحمة في
عصر يقولون كثيراً ويرددون انه عصر الحريات وعصر الانسانية ،
وما هذه الآمال والرغبات الا مزيج من الرحمة والاشفاق والألم
والأمل والشعور الحق بالقومية والصرخة الحارة للأنفة وللعزة
الوطنية والدعوة المبتعدة من الجسم ومن الروح ، المتقطعة من اللحم
ومن الدم ، الى الهدم ثم الى الانشاء ، فلقد آن الأوان بأن نعمل

مهاول الهدم والتقويض في كل مايؤخرنا في سيرنا ويتخذها الغربيون
سبة ووصمة لنا ، وفي كل مالا يتفق وصور حياتنا المدنية الغربية
المتحضرة ، وفي كل ما يكون نشراً أو ضمناً أو اضطراباً في لحنا
القومي واغنيتنا الكبرى الوطنية ، نعم آن الأوان بالآ نشفق على
قديم لمجرد أنه قديم يخلع عليه القدم صبغة من القداسة وبألا نجهن
مطلقاً في العمل على تغيير وجهات جميع مرافق حياتنا تغييراً كلياً
شاملاً ، تغييراً لا يفصل بيننا وبين الشرقية بصفة عامة والمصرية
بصفة خاصة التي نتمزج بنا لها ودماء والتي هي في ماضينا وفي حاضرننا
وفي مستقبلنا أيضاً والتي هي في عقولنا وفي قلوبنا وفي أرواحنا وفي
أحلامنا وفي نزعاتنا وفي ثقافاتنا وفي أعصابنا وفي كل خلية حية من
خلايا وجودنا ، تغييراً يبقى لنا الطابع المصري الجميل في مصريته
الفرعونية ومصريته الهربية ومصريته الحديثة المصفاة من هذه
الحضارات والثقافات الفرعونية واليونانية والرومانية والعربية واللاتينية
والسكسونية ، والممزجة المتفاعلة بهذه جميعاً

نعم الا نريد أن نتغير كأمة لها من حضارتها الأولى ومن
هذه الحضارات جميعاً مجدها وعزها المقدس طفرة واحدة ونقطع
كل صلتنا بالماضي الحبيب الينا المتغافل في كل أعصابنا وحواسنا ،
بل نريد أن نوفق ما استطعنا بين الماضي والحاضر والمستقبل ليتألف
من هذا جميعاً لحن جميل واحد للفخار المصري وللقومية المصرية ، نريد
أن تكون « مصر » التي وسعت أرضها الخصبة ونيابها الخالد كل

الحضارات الانسانية جميعاً والتي غدت من تربتها ومن مأمتها ومن
صمائها ومن تاريخها كل الثقافات القديمة المريقة في القدم ، نريد
أن تكون « مصر » هذه لا تتأخر في عصرها الحديث وفي نهضتها
الكبرى عن ان تستأنف غذاءها والهامها ووحيا هذه الحضارات
والثقافات الحديثة العالمية ، وان تؤدي رسالتها الكبرى الى خدمة
العالم جميعاً مؤتلفة من فن الشرق ومن علم الغرب !

إذن ليس لنا مناص وقد اصطنعنا وسرنا على نهج الحياة الفرية
الراقية من أن نهدم كل مالا يستطيع البقاء وما يعوقنا عن أن نكون
أمة المستقبل الفاخر كما كنا أمة الماضي الخالد ، وما يؤخرنا عن أن
نبعث من جديد مصر العلوم والفنون ، مصر الحكمة والفلسفة ،
مصر الحب والخير ، مهر الحق والجمال ، مصر السلام والجلال !
واذا كنا في حاجة الى الهدم لنبدأ في عملية الانشاء فنحن
أحوج الى ان نهدم نظام حياتنا الريفية رأساً على عقب كما يقولون ، فان
وصات العار التي تلتخ فخارنا القومي وسخرات الغربيين التي
يتفككون بها عاينا وعوامل التأخر والجود التي تعرقل خطواتنا
الواسعة في الاصلاح وفي البناء ، كل ذلك جأثم لنا في الريف وملازمنا
أبدأ في حياتنا الريفية

لقد وقف القاريء على صورة بسيطة من حياة فلاحنا وآلامه
وضروب أرهافه وغبنه ، وعرف ان هذا الفلاح النشط العامل سيد
مهر حقاً إنما يعيش عيشة خشة قدرة كلها التعسف والاهمال والفقر

والجهل والجود والحرمان والظلام رغم ما يسكب المسكين من دمه
ويقتطع من قلبه ويريق من عرقه ليطعم أبناء مصر وليكسوهم ولينمي
ثروتهم بينما هو يتقلب على أشواك الخصاصة والمسغبة وبينما هو يمشي
بين الباس نصف عريان لا يمتلك الا اللباس الذي يستر به جسمه ،
وبينما هو في معظم الليالي يبيت طاويا جائعا هو وأولاده المساكين
وزوجه الوفية ، ورغم حرمانه كل حقوقه في الحرية المطلقة والتعليم
وضروب الساوى والعزاء والاهو وحرمانه حتي حق ابداء شكواه ،
ورغم عبث الحكام واستغلالهم لجهله ولفقره ورغم تحكم الملاك فيه
وفي أولاده ، ورغم تجهل رجال الحكومات إياه كأنه ليس هو
الذي على أكتافه يصلون الى ما يصلون من كراسى الحكم ومراتب
الجاه ومنازل السطوة والسلطان !

لا نريد الآن ان نعود الى تصوير تلك الحياة الشقية لفلاحنا
المسكين فأنا لنحسب أن فيما أوردنا في الفصول السابقة وفيما حاولنا
تصويره من حياته كما نعرفها وكما نشاهدها وكما نشعر بها وكما نعتقد
ونؤمن أنها الحق نحسب أن في هذا الكفاية النسبية لمن لا يعرف
شيئاً عن الفلاح المصرى وعن لون حياته التي يحياها في عصر النور
والحرية خصوصا إذا لاحظنا وتذكرنا أننا لا نريد من هذه
السطور اذاعة رسالة علمية دقيقة ، فليست هذه السطور كما قلنا في
« المقدمة » الا شعوراً حرصنا على تصويره كما هو دون تصنيف

أو ترتيب والانداء باطنيا أحسننا بقوته وسمعنا صرخته فقمنا بتبليغه
في سبيل الواجب وفي سبيل الضمير !

والآن ، ترى ماذا تكون تلك المكافأة وهذا الاعتراف
بالفضل وبالجميل من حكوماتنا ومن ملا كنا وأغنيائنا لهذا الفلاح
المصري النشط فخر الصبر والنشاط والعمل في العالم جميعا ؟ أتدري
ماهي هذه المكافأة وما هو هذا الاعتراف بالفضل وبالجميل ؟ :
تعسف وحرمان واستغلال وارهاق وإهمال واحتقار ! وهكذا يخرج
المسكين أثمار الأرض للملاك ثم يحرم هو كفاية عيشه ورزق
أولاده ، وهكذا تبني المدارس من غرس يده ودمه ومن عرقه ومن لحمه
ومن شقائه ومن نشاطه ثم يحرم هو التعليم فيها كالشمعة التي تنير
للناس لتنطفئ هي ، هكذا تخطط المدن وترصف الشوارع وتنازل
وتزدان علي حسابه ومن جيوبه بل من قلبه ثم يحرم هو داراً نظيفة
وعيشة راضية وحياة محترمة موفرة إنسانية !!

يا رجال الحكومة ويا أصحاب الأرض والطين ! لقد آن لكم
أن تدخلوا الميدان وأن تعملوا بجهد للإصلاح وللإنشاء ، فلئن صبر
الفلاح طويلا في العصور القديمة على الضيم والحرمان والاهمال فلن
نضمن ولن تضمنوا هذا الصبر وهذا السكوت في هذه العصور ولئن
كانت سياسة الاستعباد قد حالت بيننا وبين الإصلاح المرجو في العصور
الماضية فلقد زالت هذه السياسة ولوظاهر يا أوشكت ان تنفض يدها

من مصالحنا الداخلية الخاصة وأصبحنا الآن مسئولين وحدنا عن
نواحي الضعف والاهمال والفساد والخلل في حياتنا الاجتماعية

جودوا يارجال الحكومة على الفلاح المسكين بالتجول في
القرى والعزب والكفور وتنازلوا بالاستماع الى شكاياته التي يبغثها
فقره وحرمانه وتكرموا بالنظر والتأمل والتفكير في حياته فسوف
تجدون معنا أنه من العار كل العار بل من الظلم وأي ظلم أن يهدش
هذا الصنف من الانسان العامل النبيل الطيب الكريم هذه العيشة
الويثة التي نعرفها وتعرفونها والتي تحرك عيوننا بالدمع السخين
وتفجر قلوبنا بالرحمة والشفقة عليه والتي لا نشك مطلقاً في أنها
تحرك فيكم وتفجر ما تحرك فينا وتفجر وتدعوكم الى نسيان مراكم
ومناصبكم وجاهكم حيناً لتفكروا في وضاعة وحقارة ومسكنة هذه
الحياة التي يحياها صنف مسكين ضعيف من الانسان تربطكم به
رابطة نبيلة مكيئة مقدسة ، لارابطة الوطنية وحدها ، ولارابطة اللحم
والدم وحدها ، ولا رابطة اللغة والدين والاحساسات والآلام
والآمال وحدها ، بل رابطة أسمى وأعلى وأقدس من هذه الروابط
جميعاً : رابطة الانسان بالانسان ، رابطة الأخ بأخيه ١١

وليس مانع من هنا من الآمال والرغبات سوى مطالب متواضعة
تدفعنا الى البوح بها والى اذاعتها العدالة البشرية والمبادي الانسانية
التي لا نشك مطلقاً أنها سوف تجد لها بين أبناء هذا الوادي الطيب
الخصيب المبارك أنصاراً وأعواناً، إن لم يكن يدعونا اليها شعورنا

القومي وإيماننا الوطني ولا نشك مطلقاً في أنكم تشعرون معنا هذا الشعور وتؤمنون معنا هذا الإيمان !

وقبل أن نبدأ في ذكر هذه الرغبات نرى من الحق ومن الواجب علينا أن نسجل حقيقة لا مناص لنا من الإقرار والاعتراف بها بين سطور هذه الرسالة ، وهي تلك المحاولة المبدئية التي توجهت نحو التفكير في شئون الفلاح المصري والريف المصري ، تلك المحاولة المشكورة التي أهدتها إلينا حياتنا النيابية والتي تشجعنا على التفاؤل وعلى الماضي والسير في واجبنا هذا الذي أخذنا نفسنا به لئيم السعي وتنجح المحاولة ونرى ريفنا وفلاحنا كما نحب أن نراها !

وإذا شكرنا هذا السعي الشريف المبرور إلى إصلاح العامل المصري والذي أخذ مظهره في بناء حتى جديد خاص بالعمل وفي تشريع خاص يحمي حقوقهم أزاء وتجاه أصحاب المصانع وأصحاب رؤوس الأموال ، نقول إذا شكرنا لحياتنا النيابية ولحكومتنا هذا السعي المبرور وهذه الحركة المباركة بخصوص حماية وتنظيم حياة وحقوق فئة عاملة نشطة حية هي إحدى فئات وبنائات ودعامات حياتنا الاقتصادية وثروتنا الانتاجية القومية وهي فئة العمال مجارة لتلك الحركات الشريفة القومية التي قامت بها جميع دول أوربا وأمريكا المتحضرة ، نقول إذا شكرنا لها هذا فكم ننحني عليها باللائمة لأنها عنيت بطائفة كبرى من طوائف الانتاج وأهملت طائفة قد تكون أهم وأكبر وأخطر في كل نواحي ثروتنا وانتاجنا وهي طائفة الفلاحين ، خصوصاً إذا راعينا أننا بلد زراعي

واننا نعتمد في كل ثروتنا ومرافق حياتنا المختلفة على الزراعة وعلى الفلاح بمعنى أدق ، فكان يجب أن نبدأ أولا بطبقة الفلاح ثم طبقة العامل ان عجزنا عن البدء بالطائفتين معاً، وإذا كان العامل المصري سيوفق في القريب الى تشريع يحمي حقوقه تجاه اصحاب الأعمال ورأس المال ويحدد أجوره وساعات عمله حتي يكون بمنجاة من استغلال واستبداد اصحاب المصانع، ثم الى سكنى مريحة هنيئة في حي خاص وفي نظام جديد يتفق ومقتضيات الحياة الجديدة وروحها ونزعاتها، فكم هو أحرى بالفلاح المصري فخر مصر وسيدها بلا نزاع أن يكون له تشريع خاص يحميه من ظلم ومن استبداد واستغلال ملاكها اصحاب الارض والطين وأن ينص صراحة في هذا التشريع على وجوب تحديد حد أقصى للأجبار حتي لا يستغل الملاك جهالة الفلاح وسذاجته وفقره وحتى يخافوا الله فيه وفي أولاده وليكن هذا التحديد كما أشار السير « ويليم ويلكوكس » وخبرته بالشئون المصرية وبشئون الفلاح المصري خاصة لا يمكن نكرانها أو الجدل فيها.

أشار هذا الرجل الإنجليزي مدفوعاً بالعامل الانساني النبيل لا العامل الجنسي بوجوب عدم زيادة قيمة الاجبار عن خمسة أو ستة امثال الضريبة المفروضة على الارض وهي تلك الضريبة العقارية التي تختلف قلة وكثرة

فكم ينقذ الفلاح المصري من وطأة الملاك الذين لا يهمهم

إلا أن يسدد لهم المسكين قيمة الايجار سواء أكل من جيبه أم من دمه اذا سن تشريع خاص للايجارات يحمي الفلاح من مظالم الملاك ويمكنه من أن يعيش حياة متوسطة معتدلة انسانية محترمة ، ويحدد هذا التشريع حداً أقصى للايجار وتحدد عقوبة أو غرامة لمن يخالفه ، فاذا فعلنا هذا — ونأمل أن نفعله قريباً — هذبنا انسانية الغالبية الساحقة منا وخففنا عليها بعضاً من ارزائها ومصائبها ومظالمها وألحنا لها الأمل في حياة جديدة مريحة واسعة عادلة !

واذا كنا قد فكرنا في شئون العامل وشرعنا في وضع تشريع خاص له ينظم حياته ويحمي حقوقه فأولى بنا أن نفكر في شئون الفلاح المصري وأن نشرع في وضع تشريع خاص له اسوة بأخيه العامل ، وأن نضع أيضاً نظاماً خاصاً لسكناء كما نريد مع أخيه العامل ، ولقد آن لنا ونحن في عصرنا هذا وفي عهد أحيائنا القومي العام أن نضع لائحة خاصة لنظام البناء والسكنى في الريف فمثلاً نشترط على من يريد بناء دار له ألا يخرج على قواعد تلك اللائحة بأن يبني داره بالشكل وبالنظام وبحسب الشروط المدونة في تلك اللائحة وان خالف ذلك فيعاقب بعقوبات مختلفة .

ولهذا الغرض نأمل كل الأمل أن تكون لجان خاصة في الدوائر الحكومية يكون من اختصاصها النظر في هذه المسألة الهامة وأن يعين من الفنيين والمهندسين في كل مركز من مراكز المديريات مباشر كل واحد منهم ويراقب في حدود مركزه واختصاصه عملية

البناء بهذا النظام الجديد وهو الذي يضع لهم الرسوم والتصميمات التي يجب عليهم أن يبنوا وفقا لنظامها وقواعدها وتكون هذه الرسوم واحدة متجانسة في كل ابنية القرية.

إذا فعلنا هذا — وأملنا كبير في فعله — جعلنا من القرية المصرية وحدة شكلية متجانسة تريح النفس وترضي القلب والذوق وتذكرنا بأن في حياتنا المصرية الريفية نظاما وذوقا وتجانسا

ولكنني نسيت ! ليم حياتنا الريفية جمالها كما ينبغي يجب أيضا أن يسن في تلك الأبنية على وجوب القاء الردم والسباح وما اليهما من أحوال وقاذورات في الجهات القبلية من القرى لا من بحريها وبعيدا عن الدور بمسافة تضمن عدم وصول رائحتها للاهالي

نظن ألا مبالغة فيما نقول ولا اسراف فيما نطلب فإنه قدوجب علينا كأمة تشهر بحيويتها وبكرامتها وبذاتها ان ننظم كل مرافق حياتنا وخصوصا الداخلية منها ، ولا نظن شيئا هو في أشد الحاجة الى هذا التنظيم مثل حياتنا الريفية التي بقيت على حالها الى الآن كما كانت في عهود العرب والأتراك والمماليك ومن اليهم !

من واجبنا جميعا حكومة وشعبا ان نجعل من ريفنا جنات خضراء نخرج اليها اذا تكدست على قلوبنا هموم الأسي أو أضعفت المدن وملاهيها من ايماننا ، من واجبنا جميعا ان نسير بالريف كما سرنا بالمدن وبكل نواحي الإصلاح التي سرنا بها والخطى التي خطوناها ، حتي لا نهرب بذلك من بلادنا الى ربوع الغرب نبحث

هناك عن السأوى ونفقده العزاء والراحة واللاهو ، ومن واجبتنا جميعا أن نحجب الينا ريفنا الذي درجنا على أرضه وبين ربوعه الهادئة البريئة بأن نجمله وبأن ننظمه ليكون دائماً جميلاً أمامنا حبيباً الينا عزيزاً علينا ، فانه في حالته الآن وبصورته التى هو عليها فى النظام القديم الذى شهد عصور الاقطاع وعصور السخرة وعصور الاستبداد ينفر كثيراً منا عنه وقد تربينا فى أحضانها بين حقوله وقنواته وسواقيه وأجرانه ، وقد نقشت ذكرياته الحبيبة الخالدة فى رؤوسنا وفى صدورنا وفى قلوبنا ونمت مع عقولنا وخيالنا وأحلامنا ، اذ ماذا نشعر الآن فى هذا العصر وريث وريث تلك العصور القديمة المظلمة والذي يأخذ شيئاً فشيئاً الى الانسلاخ المعتدل عنها ؟ كآبة دائمة وقطوب مستمر فلن نشهد فى الريف جديداً ، ولن يتغير شعور يومنا عن أمسنا ولن نأمل كثيراً أن يكون غدنا خيراً من يومنا ، حياة ثابتة جامدة لاجدة فيها ولا حياة ، مانراه اليوم نراه غداً ، الشمس تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب والحقول نخضر وتيبس والمواشي تذهب وتجي ، والفلاحون يعملون فى الغيطان ثم يعودون ، والنساء يحملن جراتهن أو يعملن فى الحقول مع رجالهن والاطفال فى الحارات يتمرغون فى التراب أو يلعبون ا حياة مبقية على ثيابها خلال كل هذه الأجيال المتناسلة والعصور الطويلة ، فالرجل الذى تقابله اليوم قد لا يقابلك الا هو فى الغد بنفس الصورة والشكل والوضع الذى رأيته عليها بالأمس واليوم ، والمرأة التى

تشاهدها اليوم في الفيط أو على التربة هي هي التي قد تشاهدها غدا
بنفس ملابسها وهيئتها ، ومشاهد الطبيعة وكل ما حولك من أرض
وسماء وماء وشجر هي هي التي شهدت بالأمس وتشاهدها اليوم وستشاهدها
غداً وبعد غد وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والساقية التي
تمر بها الآن وتسمع غنائها وموسيقيتها هي التي مر بها غيرك مئات
المرات وهي التي ستمر عليها أنت آلاف المرات لن تتحول عن مكانها
ولن تغير من موسيقيتها أو تجدد في غنائها ، والاصوات التي تسمعها
اليوم من أفواه الناس ومن غناء الفلاحين ومن الارغول والمزمار
والسلامية هي التي سمعتها بالأمس وهي التي ستسمعها غدا وغدا
وصاحبها اليوم هو صاحبها بالأمس بل صاحبها من منذ أعوام في صوته
وفي هيئته

وهكذا حياة الريف عندنا في كثير من بقاعها ونواحيها :
جمود لا يعدله جمود وقديم عريق في قدمه ، حياة لا يشهر فيها الغريب
أو المدني أو المستنير بجدة في الشعور أو حيوية في العواطف أو
اثتلاف في الميول ، وإنما يشعر أنه غريب عما حوله بنزعات فكره
ومخواطر نفسه وبآماله وبآلامه وبميوله وبشهواته ، ويكفي كل هذا
لأن يجعل الانسان غريباً حقاً بكل معاني الغربة !

فكم نحن في حاجة إلى أن نجعل من هذا الريف المهمل المنبوذ
جنات نخرج إليها ونجدد فيها حبنا وعواطفنا ونتغذى منها مبادئ
عبادة الجمال !

وإذا كنا قد جهرنا بتنظيم حياة السكاني في الريف وبتجميمه بحيث يتفق مع ما نصبوا اليه من مظاهر الحضارة والقوة والنظام والجمال فلن يكون جهرنا بالاكثر من المستشفيات والمصحات وكل وسائل الصحة في تلك الربوع الريفية المحرومة منها اضعف واخفت! كلنا نعلم أن الامراض العديدة كالبلهارسيا والانكلستوما وامراض الرمد وما اليها جميعا تنزرو غلاتنا المسكين وتهدد حياته وتجعل من لون بشرته ووجهه لونا حائلا باعثا مثالا الى الصفرة والى الذبول والى فقد الدم والحياة وكلنا نعلم ان فقره وبؤسه يحولان بينه وبين تطبيب نفسه ونعلم أنه حين يعجز عن وجود المال يضطر الى الاستدانة ولو بفائض فادح من جماعة المرايين وقد يضطر المسكين الى بيع ما عنده من غلال أو مواش أو نهاج كل هذا كله ونشاهده كل يوم ونسمع أنات المرضى ونرى الوجوه الحائلة الباهتة والصدور الشاكية ، فهل لم تبلغ بنا الى الآن الشفقة والرحمة بهذا المسكين الذي يدر علينا الخير والنعمة والخصب من فوقنا ومن تحتنا ومن عينا ومن شمالنا أن نبني له المستشفيات التي تنقذه من غزوات أمراضه العديدة ومن فتسكها بحياته الغالية علينا جميعا ! لا لأنه مصري تربطنا به رابطة الجنس واللغة والدين والمشاعر والاحساسات وحدها ، بل لأنه أكبر وأشرف من ذلك ، بل لأنه انسان ؟ ! وبهذه المناسبة لا نود أن يفوتنا تسجيل تلك الظاهرة الطيبة التي

أخذت تبدو تحت سماء مصر المحسنة الخيرة خلال هذه الشهور
الآخيرة بفضل جماعة من اغنيائنا نسوا جاههم وأنفسهم حينما
وذكروا مصر التي من أرضها وتحت سماها نشأ غناهم ونما وترعرع
وازدهر ، نعم يسرنا كل السرور ان برزت هذه الجماعة الفاضلة
من رجال المال في مصر تحمل راية الخير والاحسان . وتترغم
وتقود عملية البناء في بلد حديث العهد بالبناء ، والذي يسرنا أكثر
من هذا ليس العمل نفسه بل تلك الدلالات التي يمكننا أن نستقيها
منه ، فلقد بدأنا نقدر الاحسان وبدأنا نشعر ونأسى للجراحات
المعوزين ، وبدأنا نذكر أننا لا نعيش في هذه الحياة لأنفسنا
فحسب بل نعيش لأنفسنا وللجماعة وللوجود وللإنسانية جميعا ،
وبدأت قلوبنا تتفجر عن حب الخير لمن امضهم العوز وذاتهم السؤال
وهدم الفقر ، وبدأنا نفهم ونعرف أن الحياة ليست في جالب المال
وتكديسه واكتنازه فحسب ، وانما ليست في بناء القصور وانشاء
الرياض وحياسة الخدم وعبادة الطين والمال فحسب ، ولكنها أيضا
في جبر القلوب الكسيرة وفي تضميد الجراحات الدامية وفي تخفيف
سيول الدموع الدليلة ، وفي اعلاء شأن هذا الوطن الذي درجنا على
أرضه وتغذينا من ثماره وارتويننا من مائه ، وفي تهذيب ناحية من
نواحي الإنسانية المعذبة بالبناء وبالصقل وبالتجميل
اذن ليست الحياة ان نأكل ونشرب فحسب ، ولكن أن

نشعر وأن نهطف ؟ أن يكون لنا بطون وأمهات تحسن ازدراد
الطعام وهضمه ، وأنوف تتلذذ برائحة الطهي ، ولكن أن يكون لنا
قلوب تخفق بالحب وبالرحمة ، وأعصاب تتأثر للعوز وللذلة ، ونفوس
وأرواح تأنف الضعة وتقصد الكرامة وتعبد الجمال !

نسجل اذن والسرور يملأ نفوسنا ويفرر قلوبنا تلك الحركة
المباركة المشكورة في سجل مصر الحديثة ونأمل من كل قلوبنا أن
تفشي ثقافة الخير والاحسان في مصر الخصب والجود والخير والجمال
والاحسان ! ونستزيد تلك الحركة المباركة نشاطاً وعملاً وسعيًا
ونأمل أن يكون عندنا في مصر بين رجال الطين والمال غيرة ومنافسة
في عمل الخير والاحسان وفي عمليات البناء ، والانشاء ، كما يفارون
ويتنافسون في تكديس الاموال وفي بناء القصور وتوسيع الضياع !
ونريد ان نذكرهم دائما بأن مصر الحديثة في حاجة الى بعض
أموالهم ليتم بعثها وحياتها ولتقف على أرجائها بين الأمم التي تشهر
بوجودها وتتيه بمجدها وفخارها ، وبأن الواجب يقضي عليهم أن
يتحملوا نصيبهم من الاصلاح في سبيل مصر وفي سبيل الانسانية
جميعا !

ونريد أن نذكرهم أيضا بأن الامم بافرادها لا بحكوماتها ،
فالافراد هم تلك الخيوط المنسوجة في ذلك الثوب المزركش المحبوك ،
وليست الحكومات الا أداة تقوم بإرادة الشعوب ، وليكن لهم من

أغنياء أوروبا وأميركا خير مثال يحتذى إذا كانوا يريدون ان يقوموا
بواجبهم ويلبوا النداء الصارخ، ونحسبهم فاعلين !

تأتي بعد ذلك مسألة التعليم وهي مسألة المسائل بلا جدل ، فلا
يزال الجهل أعدى أعدائنا ، ولا يزال هو المستعمر مصر لاجراب
انجلترا كما نظن ، وللتعليم في القرى أهمية خطيرة لأنه التعليم الاولي
وهو اللبنة الاولي في البناء التعليمي ، وأولى باللبنة أن تكون قوية
مكننة ليكون البناء مدعماً متيناً ، ونحن وان فرحنا وشدنا بتلك
المدارس الاولية الالزامية الصغيرة التي خلقتها حياتنا النيابية ، فاننا
نحب ان نسجل هنا في تلك الرسالة الصغيرة أسفنا الكبير على
اندثار الكتاتيب القديمة اندثاراً نشاهده يخطو خطواته بالتدريج ،
فالقد كانت هذه المدارس الحديثة عاملاً كبيراً في هدم هذه الكتاتيب
فهدمت بذلك تلك الصور والذكريات الجميلة الأولى في فطرتها
وفي بداوتها ، وكانت أشد خطورة من ذلك ، كانت العامل الاكبر
في إلغاء التعليم القرآني شيئاً فشيئاً وتلك نكبة النكبات جميعاً !

نعم ! فاننا ندساخ شيئاً فشيئاً من الروح الديني في مدارسنا
الاولي ومن التعليم القرآني وابتدأ يطغي علينا وعلى عقول ناشئتنا
الصغيرة تلك السيول الجارفة من التعليم الحديث الذي هو الى
القشور أكثر منه الى اللباب والى حشو الادمغة أكثر منه الى
تنمية العقول وصقل النفوس ، ومن العجيب حقاً في هذه المدارس

الريفية الصغرى ان الصبي يتلقى من هذه القشور مالا يتفق مطلقا وعقله الصبي الناشئ ، فلست أدري كيف يسيخ عقل في سن السادسة أو السابعة مبادئ التاريخ الطبيعي أو التربية الوطنية ، ان هذه طفرة تشبه الجنون ، ومن اعجب العجب أيضا ان كثيرا من المدرسين في هذه المدارس الريفية لا يعرفون من هذه العلوم الحديثة الا ما في الكتب المقررة للتدريس ، وكان الله يحب المحسنين !

وكم نأمل ونحن نكتب هذه السطور أن تكون خطواتنا جميعا أكثر اتزاناً وريثاً واعتدالاً حتي لا يتخمننا الطهام فننفجر

نأمل الا يذهب أبناؤنا واخواتنا في التعليم الأولي ضحية هذه البراميج المزوقة كما ذهبنا نحن ضحاياها ، ، نأمل أن تقضى على تلك الفكرة القديمة والتي لا يزال فيها بعض من الحياة الى الآن وهي أن الفرض من التعليم كما أراد السيد « دنلوب » تخريج الموظفين وكتبة الدواوين وسعاة المصالح والتعهد للمشارب والقهاوي والاندية والأرصفة بما يكفلها ويملاؤها من شباننا !

ونأمل أن يكون التعليم القرآني هو الاساس الأول لهذه المدارس الالزامية لأن في القرآن الكريم كياننا ووجودنا وقوميتنا كما قال بحق أحد المستشرقين حديثاً !

ونحب هنا بمناسبة التعرض لمسألة التعليم أن نسجل رجاءنا الكبير لوزارة الزراعة بأن تجعل من الفن السيمائي وسيلة الى تعليم الفلاحين الطرق الحديثة في الزراعة التي توصل اليها الفن الزراعي

في أوروبا وأمريكا وتعلمهم بذلك زراعة محصولات جديدة وتعهدهم
الزراع بالحفظ والعناية وتعلمهم بخاصة فن الخضروات والبساتين
وتلك الصناعات الزراعية العديدة التي تنشأ مع الزراعة كعمل
المربات والزبدة وتجفيف الفواكه وعمل الحبال الى غير هذه
الصناعات الزراعية العديدة التي تمخضت عن الفن الزراعي حديثا
وتعلمهم بخاصة كيفية حفظ الزرع من آفاته الزراعية التي تفتك به
وتقضي على جزء كبير من محصوله

ونأمل مع تقدم الكهرباء أن يكون لريفنا نصيب منها حتى تتعدد
صناعاتنا الزراعية وحتى ينتقل الفلاح المصري من طور العمل
اليدوي الى العمل الكهربائي ، وهذا الامل وان يكون لا يزال جنينا
فانه على كل حال أمل ، وكل الاعمال انما كانت أولا مجرد احلام
وآمال !

وكم نحب هنا بهذه المناسبة أن نلفت نظر اغنيائنا وكبار
زراعنا الى زراعة الفواكه والخضراوات بدلا من الانغماس في
زراعة القطن والقمح وحدهما فان مصر فقيرة من هذه الناحية فقرا
مدقعا ، وهم بذلك انما يزيدون في انتاجنا وفي خلق ربوع للمناظر
الجميلة ، وبذلك يمكننا أن نزرع الذهب على حد تعبير الاستاذ
سلامه موسى

وما أخرجنا ونحن بلد حياتة في الزراعة الى الجماعات التعاونية الزراعية ، خصوصا بعد ان عملنا كل جهدنا في تصوير حياة الفلاح المصري البائس الباذخة حياتة اقصى مراتب الفاقة والعوز ، فالحكومات تتجاهل وجوده وهى مع ذلك تعيش عليه ، والمالك يستبد به ويرهقه ويكاد يستعبده ، وكل ما حوله الب عليه ، ازاء هذه الحال المبكية الالهية كان من المعقول أن يكون له جماعات تشهر بشعوره وتفهم لغة آلامه ، تنجيه من استبداد المرابين وطغيان الملاك وتجاهل الحكومات وعداء الاقدار ومصائب الحياة ، وتنجيه أكثر من ذلك ، من شر جهله فيما يبيع ويشترى !

ولقد ولدت عندنا هذه الفكرة حوالي سنة ١٩٠٤ ثم مشيت بعض خطوات وهي في طفولتها الاولى ، ثم عجزت عن السير ولم تقو على الحركة ، ثم عاودت نشاطها في عهدنا النيابي الحديث ، وأخيراً ركنت الى الدعة والى النوم والى الخمول

ولسنا ندري كيف تكون أرواحنا في الزراعة ثم لا تتشرب نفوسنا الروح التعاونى ولا يكون لنا نظام تعاوني منظم قوي منتج ؟ أمامنا بلاد التعاون الكبرى مثل دنمرك وألمانيا وفرنسا وإنجلترا فلماذا لا نبحث عن أسباب نجاحها وأسباب فشلنا ونبنى نظامنا التعاوني على تلك الاسس القوية المتينة الخالدة ؟ لا ينقصنا شيء سوى الإرادة وسوى الشعور بالحاجة الى هذه الجماعات ، ولكن مادامت حكوماتنا تنفض يدها من مساعدة هذه الجماعات ماليا

وأديا ومادام أغنياؤنا أو أكثرهم لا يعنون إلا بأنفسهم والا وراء
تكديس الاموال ثم بهترتها في مصافي أوروبا وفي مشاتها فسنبقى على
مانحن عليه أبداً لا بد من ، وسيبقى فلاحنا المسكين نهبة الطامعين
وضحية المرايين ولعبة في أيدي اللاهين ، وسيبقى المسكين ضحية
جهله فيبيع محصوله بنفسه بثمان بخس أو يبيعه له مالكه بثمان ان
كان عظيماً فالذي يستفيد من ذلك هو المالك لا الفلاح ، فالملاحظ
في كثير من القرى أن الفلاح ليس له الا محصول الذرة والمحصول
الشتوي أما القطن فللمالك فأن لم يسدد منه الفلاح إيجاره فيولي
وجهه شطر ما حصل عليه المسكين من الذرة والفلال وان زاد عن
الايجار كان الربح للمالك وحده فيكون بذلك الفرم على الفلاح دائماً
وليس له من الغم شيء

وغير ذلك فان جماعة المرايين اللصوص تعيش على جهله وعلى
عوزة وحاجته ، ومن النادر الا يحتاج اليهم خلال السنة خصوصاً
في شهور الضحك والجذب ، وهنا يعطونه من جيوبهم ليأخذوا ويقتطعوا
من قلبه ويشربوا من دمه

ازاء كل هذا كان من طبيعة العدل أن يكون لنا جماعات
تعاونية تأخذ بيد الفلاح المصري من هذه الوهدة وتريه النور
وتشعره الراحة والطمانينة وخصوصاً جماعات التوريد والمصارف
التعاونية ، ولتنجح هذه الجماعات يجب كما قلنا ان تنزعها أولاً الحكومة
ولو من طريق الاشراف أو المراقبة أو المساعدة وان نعمل الدعايات

الكافية لبث الروح التعاوني بين الفلاحين بواسطة جماعة من المتطاميين وبواسطة نشرات دورية عن الحركة التعاونية ، ولكن نرى أن تكون الخطوة الأولى في ذلك استثمار الفلاح المصري أولاً بفائدة التعاون ، لأنه بدون ذلك لن يقوم للتعاون في مصر قائمة ، وهذا الاستثمار يكون بالتعليم وبالمحاضرات من رجال الزراعة ونشر المعارف الأولى للنظام التعاوني وطرقه في غرب أوروبا

ويوم يكون لنا هذا النظام يوم نشعر ونؤمن ان الفلاح المصري بدأ يرى بهيئته النور ويتعلم بالوجود وبالعالم ، وهذا العمل من واجب كل مصري تحركه الشفقة بوطنه وبأخيه الفلاح ، وهنا نقول لكل مصري ما قال « ولنجتو » لجنوده : « ان مصر تطلب من كل منكم أن يقوم بواجبه » ١

ولقد آن الاوان لأن يكون لنا صناعة زراعية فمن العار كل العار ان نكون بلد زراعي ثم نشترى الجبنة والزبدة من يد الغربيين ، وإذا كان البعض قد قال ان مصر لا تصلح للصناعة فان هذا القول تخدير للاعصاب ويراد به قتل مصر فلسنا نعرف لشعب حياة موفورة صحيحة بدون صناعة ، خصوصاً وان الصناعة الآن هي محور النظام الاقتصادي في كل ربوع العالم

إذن من أول واجباتنا ان ندعو الى الصناعة الزراعية في مصر كصناعة الالبان وعمل الزبدة ، ويمكننا أن نتخذ « ديمرك » في

ذلك مثلاً نحاكيه ، ثم صناعة الحبال بعد ان ندخل في مصر زراعة « القنب » ، ثم عمل المرات وتجهيف الفواكه حتي يكون هناك بذلك مجال فسيح لعمل النساء الى غير هذه الصناعات المديدة التي أشار بها تقرير لجنة التجارة والصناعة في سني الحرب والتي بعثها من مرقدتها أخيراً بنك مصر في تقريره القيم الجديد يرفع به صوت مصر الى الحياة والى البعث والى القوة والى الانتاج

نعم آنا الأوان أن نخطو في عملنا خطوات جريئة وان تقطع تلك المراحل التي قطعها العالم الاوروي والامريكي وان نستخدم ثرواتنا المكتنزة المدفونة المجهولة والا نعتمد مطلقاً على الزراعة وحدها والا حق علينا الفناء ان عاجلاً وان آجلاً

والماء ! ليس ماء ما يشرب الفلاح المسكين ولكنه عكارة وطين وميكروبات في مستنقعات مليئة بالجيف والنتن ، وان ترضى هذه الحال السيئة انساناً له قلب وضمير

لقد سمعنا بالمشروعات الحديثة حول تكرير الماء في القرى وحول ردم البرك والمستنقعات ونخشى كل الخشية ان يموت الجنين في بطن أمه قبل أن يظهر الى عالم الوجود ، فقد تعودنا في مصر أن نسمع كثيراً من معمل المشاريع الميتة ثم لا نرى شيئاً

واللهنا في هذه المرة نرى الجنين ينجو ويرتع ويلعب ويكافح

الحياة والوجود

وبمناسبة الماء نريد ألا تفوتنا تلك الملاحظة التي نلاحظها في كل ربوع ريفنا وهي تلك الشكوى الصارخة من سوء التصرف في المياه ، وبآلياتها تقف عند حد الشكوى والصراخ ، اذن هان الامر ، ولكن هي أخطر من ذلك فان الفلاح المصري اذا ما عزت عليه المياه وكثيراً ما تعز أخذ يلعن في الحكم المصري وفي الموظفين المصريين وتدرج من ذلك الى الاشارة بالحكم الانجليزي وبالموظفين الانجليز الذين كانوا يحسنون تصريف المياه وتوزيعها بعدل بين الناس ، ولا يمكننا مطلقاً أن نلوم الفلاح على هذا لأن في الماء حياته ولأن الموظفين المصريين غالباً يتخذون نحوه خطة لا تساعد على الألفة والعدل والطمانينة ، وهكذا يهدمون ما بنى ويخمدون هذا الشعور الوطنى البحت الحى الذى خلقته فى قلوبهم تلك النهضة الكبرى المباركة ، فمساننا نقبل على عهد جديد حى ، وعسانا نتعلم كيف ننظر الى الفلاح وكيف نحترمه ونقدره !

والآن يجب أن نختتم ونقول ان هذه الآمال التي ذكرناها وهذه الشكاية الصارخة التى بجنا بها ليست الا صدى لآمال الفلاح المصري ولشكاياته ولجراحاته ، وليست الا جزءاً مما يدور بخلدنا جميعاً من آمال لانهاض البلد وهدم كل مالا يتفق ونهضتنا ولا نشاء جيل جديد يشعر ويضطلع بالمسؤوليات الكثيرة الملقاة على كاهله وبالتركات السيئة التى خلفها لنا السلف والآباء وقالوا : « وبعدها الطوفان » !

نوجه اذن نداءنا الصارخ الى كل مصري حر كريم ، الى كل
من تحركه ولو ابطت عوامل الرحمة والانسانية ، ان يوجهوا أنظارهم
جميعها الى الريف المصري النائم المنبوذ ، فهناك الفقر فاغر فاه ،
وهناك الجهل جاثم في مريضه وناشر أجنحته السوداء ، وهناك ضروب
البطش والجور على أحدث طراز ، وهناك تلك البقية الباقية من عصور
المماليك المناكيد ، هناك يجب أن نبدأ بعملية الهدم لنشرع في
عملية البناء . . .

الفلاح المصري يناديكم يا أنصار « حقوق الانسان » !